



يفتح الإخفاق الروسي في تحقيق نتائج في معارك أرياف حماة وإدلب الباب أمام التساؤل عمّا إذا كانت ستتشكل إدلب وجوارها منعطفاً في الصراع السوري الذي باتت تسيطر روسيا على مجرياته بدرجة كبيرة.

قد يكون الكلام عن هزيمة روسية في الشمال السوري نوعاً من رفع سقف الآمال بدرجة كبيرة، في حدث ما زال من المبكر إصدار حكم بخصوصه، وتعيين المنتصر من المهزوم. ولكن لا يبدو أن وصف الإخفاق للفعل الروسي، أقله حتى اللحظة، يدخل في سياق المبالغة في وصف مجريات المعارك في الشمال السوري، بقدر ما هو واقع حاصل على الأرض، تؤكده؛ ليس فقط الخسائر الكبيرة في العتاد والجنود على طرف روسيا و مليشياتها، وإنما أيضاً مناورات روسيا لإقامة هدنة، وإطلاق ورشة مباحثات روسية – تركية، لإيجاد مخرج من هذا الإستعصاء الميداني.

فهل يمكن البناء على هذا الإخفاق لكسر الإستراتيجية الروسية المتدرجـة في قضم المناطق السورية، وإنـاكـ الخصوم وإخراجـهم من دائرة الفعل، وإخضـاعـهم لنـظامـ الأـسدـ، كما حـصـلـ فيـ حـلـبـ وـالـغـوـطـةـ الشـرـقـيـةـ وـجـنـوبـ سـورـيـةـ؟ ثـمـةـ عـامـلـانـ لـطاـلـمـاـ سـاعـدـاـ روـسـيـاـ عـلـىـ تـحـقـيقـ ماـ سـمـتـهـ اـنتـصـارـاـ فـيـ سـورـيـةـ، شبـكةـ التـفاـهـمـاتـ التيـ أـجـرـتـهاـ معـ الـلـاعـبـينـ الإـقـلـيمـيـنـ الـذـيـنـ لـديـمـونـةـ عـلـىـ الـمـعـارـضـةـ، وـقـدـ أـسـهـمـ ذـلـكـ فـيـ تـفـكـيـكـ قـوـةـ تـلـكـ الـفـصـائـلـ، وـإـغـلـاقـ طـرـقـ إـمـادـاهـ، وـإـضـعـافـ خـيـارـاتـهـ إـلـىـ حدـودـ صـفـرـيـةـ، وـالـخـلـافـاتـ الـهـائـلـةـ الـتـيـ نـشـبـتـ بـيـنـ الـفـصـائـلـ، قـتـالـهـاـ مـعـ بـعـضـهـاـ وـخـسـارـتـهـاـ الـعـنـاصـرـ وـالـعـتـادـ، وـإـنـخـافـضـ رـغـبةـ عـنـاصـرـهـاـ فـيـ قـتـالـ قـوـاتـ الـعـدـوـ.

بالإضافة إلى هذين العاملين، شـكـلـ وـجـودـ مـلـجاـ لـهـذـهـ الـفـصـائـلـ وـعـنـاصـرـهـاـ، إـدـلـبـ وـرـيفـ حـلـبـ، مـحـفـزاـ لـهـاـ لـتـرـكـ القـتـالـ، ماـ دـامـتـ تـلـكـ الـمـنـاطـقـ سـتـصـبـحـ بـدـائـلـ، لـيـسـ لـمـارـسـةـ النـخـالـ ضـنـدـ الـأـسـدـ، وـإـنـماـ لـتـشـكـيلـ هـيـاـكـلـ سـلـطـوـيـةـ ثـورـيـةـ، وـهـوـ حـلـمـ عـتـيدـ لـدـىـ الـفـصـائـلـ. عـلـىـ ذـلـكـ، يـأـتـيـ تـأـثـيرـ سـلاـحـ الـفـضـاءـ الـجـوـيـ الـرـوـسـيـ فـيـ نـيـلـ الـقـائـمـةـ، هـذـاـ لـيـسـ كـلـامـ إـنـشـائـيـاـ، بلـ أـثـبـتـهـ مـعـارـكـ

إذلب أخيراً، فحين ذهبت الفصائل إلى ترميم وصيانة قوتها الذاتية، وتتوفر طريق إمداد جيد، وكذلك القتال، لأنه لا توجد بدائل أخرى، أو لأن البدائل كلها سيئة، فإنها استطاعت الصمود، والتقدم أحياناً، على الرغم من وجود الشروط نفسها التي قاتلت بها تلك الفصائل في مناطق أخرى، وانسحبت لصالح الروس، وتم تفسير هذه التراجعات بالتدخل الجوي الروسي الخامس.

يفيد تاريخ الحروب المماثلة التي خاضتها قوى عظمى ضد أطراف أقل قوّة منها، حربا أميركا في فيتنام وروسيا في أفغانستان، أن هذه القوى استخدمت كثافة نيرانية هائلة في هذه الحروب، وخصوصاً بأسلحة الجو، وكذلك حصلت على مساندة كبيرة من قوى محلية، لكنها لم تحقق نتائج حاسمة، والسبب أن القوة المقاومة لها أحسنـت استخدام المزايا التي تملكها بوصفها جيوشا غير نظامية، لديها مرونة أكبر في العمل والتحرك، فضلاً عن معرفتها بالأرض التي تحارب عليها، واستثمارها كل العوامل المتوفرة، بما فيها ظروف الطقس، فضلاً عن متابعتها التطورات السياسية، سواء داخل بيئات الخصوم؛ أو في البيئات الإقليمية والدولية عموماً.

ثمة معطيات كثيرة تغيرت قد تساعد في إضعاف المشروع الروسي، أو على الأقل التصور الروسي لإدارة سوريا بعد الحرب، وإن تم التنبه لها من القيادات السياسية والعسكرية للمعارضة السورية، سيكون لها نتائج مهمة في سياق الصراع المستقبلي. أول تلك المتغيرات، التناقض الجلي بين إيران وروسيا، فمن الصعب عودة إيران لمساعدة روسيا، وخصوصاً في مناطق الشمال، كما أن إيران مصلحة في إضعاف الروس، والتقليل من هيبيتهم، فإيران صارت على قناعةٍ تامة بأن الروس يريدون إضعاف وجودها في سوريا، بل وإخراجها نهائياً إن استطاعوا، بدليل موافقتهم على حضور مؤتمر "القدس الثلاثي"، المخصص أساساً لبحث إخراج سوريا من إيران.

لن تخوض إيران أي معركة في سوريا تحت جناح روسيا، بشكل جدي، ما لم تقبض نتائجها الإستراتيجية بشكل مسبق، وستحاول الإحتفاظ بقوتها لخطر قادم، ليس الروس خارجه، وخصوصاً بعد تكرار الصدامات بين الطرفين، كان آخرها في دير الزور والبوكمال، فضلاً عن أن مليشيات إيران ضعفت، وجرى تفكك بعضها، وإنسحاب جزء منها، كما أن حزب الله يواجه إحتمالات حرب إسرائيلية، وحتى إيران نفسها أصبحت داخل دائرة خطر الحرب، بعد التطورات الأخيرة في الخليج.

وثمة متغيرات حصلت في ذهنية القيادة الروسية، فلم تعد مندفعـة للحرب من دون شرط أو قيد، سوى ظروف الميدان، إذ يبدو أن روسيا بدأت بفتح خطوط تفاوض حول مستقبل وجودها في سوريا، مع قوى دولية وإقليمية. وبالتالي هي مضطـورة لمراعاة هذه التطورات، وقطف ثمار وجودها، وهذا لا شك سيُخفـض حافزية الهجوم لديها، لصالح تثمير خطوط التفاوض والمساومات مع الأطراف المؤثرة، أو التي سيكون لها أدوار مهمـة في الحساب الروسي، وخصوصاً على صعيد عملية إعادة الإعمار، وإستقرار الوجود الروسي في شرق المتوسط.

للفصائل المقاتلة الدور الأبرز في كل هذه التطورات، فصمودها سيضعف خيارات روسيا، ويربكـها بدرجة كبيرة، كما أن التكتيكات الجديدة التي تتبعها في المعارك، بالإضافة إلى بلورة قواها والاستفادة من المزايا التي تملكـها على الأرض، وحماس واندفاع كواحدـها في صد الهجوم الروسي، كل ذلك ستكون عوامل معاـدة على كسر الإستراتيجية التي اتبـعـتها روسيا في السنوات الثلاث الأخيرة.

ليس مطلوباً من فصائل المعارضة سحق الوجود الروسي في سوريا، فلا إمكاناتهم ولا الواقع الدولي يسمـحان بهذا، لكن صمودـهم سيجبر روسيا على تغيير المعادلة التي تبنـتها حتى اللحظـة، والتي تمـيل إلى جعل الأسد المنتصر الوحـيد على حساب ملايين السوريـين، فهل من الممكن رؤـية هذا التغيـير؟

المصادر:

العربي الجديد